حكايات من التاريخ

٥

فإن اللّٰه وسع علينا

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

مَنْ تَوكَّلَ على الله كَفَاهُ

كَانَ (حَاتِمُ الأَصَمُّ) وَهُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُلْوَانَ ، مِنْ خُرَاسَانَ ، تُوُفِّي عَامَ (٢٣٨ هـ) وكانَ رَجُلاً كَثِيْرَ العِيَال ، وكانَ لَهُ أَوْلاَدٌ ذُكُوْرٌ ، وإِنَاثٌ ، وَلَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ شَيْئاً ، إِنَّمَا كانَتْ قَنَاعَتُهُ: أَنَّ مَنْ تَوَكَّل عَلَىٰ الله كَفَاهُ.

وذَاتَ لَيْلَةٍ جَلَسَ مَع أَصْحَابِهِ يَتَحدَّثُ مَعَهُمْ ، فَتَعَرَّضُوا لِذِكْرِ الحجِّ ، فَداخَلَ الشَّوْقُ قَلْبَهُ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى أَوْلادِهِ فَجَلَسَ

مَعَهُمْ يُحَدِّثُهُمْ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: لَوْ أَذِنْتُمْ لأبِيْكُمْ أَنْ يَذْهَبَ إلى بَيْتِ رَبِّهِ في هَذَا العَامِ حَاجًّا، ويَدْعُو لَكُمْ: ماذا عَلَيْكُم لَوْ فَعَلْتُمْ؟!

فَقَالَتْ زَوجَتُهُ وأَوْلاَدُهُ: أَنْتَ عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ ، لا تَمْلِكُ شَيْئاً ، ونَحْنُ عَلَى مَا تَرى مِنَ الفَاقَةِ[1] ، فَكَيْفَ تُرِيْدُ ذَلِكَ ونَحْنُ بِهَذِهِ الحَالَةِ؟

.... وكانَ لَهُ ابْنَةٌ صَغِيْرَةٌ ، فَقَالَتْ: مَاذَا عَلَيْكُمْ لَوْ أَذِنْتُم لَهُ ، ولا يَهُمُّكُمْ ذَلِكَ؟!

دَعُوْهُ يَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَ ، فإِنَّهُ مُنَاوَلُ الرِّزْقِ ، ولَيْسَ بِرَزَّاقٍ.

فَذَكَّرْتُهُم ذَلِكَ.

---

(١) أي: الفَقْر والحَاجَة.

فَقَالُوا: صَدَقَتْ والله! هَذِهِ الصَّغِيْرَةُ يا أَبَانَا! انْطَلِقْ حيْثُ أَحْبَبْتَ!

فَقَامَ مِنْ وَقْتِهِ وسَاعَتِهِ، وأَحْرَمَ بالحَجِّ..

وخَرَجَ مُسَافِراً، فأَصْبَحَ أَهْلُ بَيْتِهِ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ جِيْرَانُهُمْ يُوَبِّخُوْنَهُمْ، كَيْفَ أَذِنُوا لَهُ بالحَجِّ، وتأَسَّفَ على فِرَاقِهِ أَصْحَابُهُ، وَجِيْرَانُهُ.

فَجَعَلَ أَوْلادُهُ يَلُومُوْنَ تِلْكَ الصَّغِيْرَةَ، ويَقُولُوْنَ: لَوْ سَكَت ما تَكَلَّمْنَا.

فَرَفَعَتِ الصَّغِيْرَةُ طَرَفَها إِلَىٰ السَّمَاءِ، وقَالَتْ: إلهِي، وسيِّدي، ومَوْلايَ، عَوَّدْتَ القَوْمَ عَلَى فضْلِكَ، وأَنَّكَ لا تُضَيِّعُهُمْ، فلا تُخَيِّبْهمْ، ولا تُخْجِلْنِيْ مَعَهُمْ.

فبَيْنمَا هُمْ عَلى هَذِهِ الحَالَةِ؛ إذْ خَرَجَ أَمِيْرُ البلَـدِ مُتَصيِّـداً، فـانْقطَـعَ عَـنْ عَسْكَـرِهِ وأَصْحَابِهِ، فَحَصَل لَهُ عَطَشٌ شَديدٌ، فاخْتَارَ بَيْتَ الرَّجُلِ الصَّالِح (حَاتمِ الأَصَمِّ).

وَقَرَعَ البَابَ ، وطَلَبَ مِنْهُمْ مَاءً ، فَقالُوا: مَنْ أَنْتَ؟

قالَ: الأَمِيْرُ بِبَابِكُمْ يَسْتَسْقِيْكُمْ!

فَرَفَعتْ زَوْجَةُ حَاتِمٍ رأسَهَا إلى السَّمَاءِ ، وقَالَتْ: إلهي ، سَيِّدي سُبْحَانَكَ! البَارِحَةُ بِتْنا جِيَاعاً ، والْيَوْمُ يَقفُ الأَمِيْرُ عَلَى بَابِنَا يَسْتَسْقِيْنَا!!

ثمَّ إنَّها أَخَـذَتْ كُـوْزاً ـ إبْرِيْقـاً ـ حَدِيْـداً ومَـلأتْـهُ مَـاءً ، وقَـالَـتْ لِلْمُتَنَـاوِلِ مِنْهَـا: اعْذُرُوْنَا...!

فـأَخَـذَ الأَمِيْـرُ الكُـوْزَ وَشَـرِبَ مِنْـهُ ، فاسْتَطَابَ الشُّرْبَ مِنْ ذٰلِكَ المَاء ، فَقَالَ: هَذِهِ الدَّارُ لأَمِيْرٍ؟

فَقَالُوا: لا والله! بَلْ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، يُعْرَفُ بِحَاتَمِ الأَصَمِّ.

فَقَالَ الأَمِيْرُ: لَقَدْ سَمِعْتُ بِهِ.

وَلَحِـقَ بـالأَمِيْـر الـوَزِيْـرُ ، والحَشَـمُ ، والجُنُوْدُ... فحدَّثَ الأَمِيْرُ وَزِيْرَهُ بِمَا جَرَى لَهُ مِنْ شَرْبَةِ المَاءِ ، فقَالَ الوَزِيْرُ: يا سَيِّدي! لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّهُ البَارِحَةَ أَحْرَمَ بالحَجِّ ، وسَافَرَ ، وَلَمْ يُخَلِّفْ لِعِيَالِهِ شَيْئاً ، وأُخْبِرْتُ أَنَّهُمُ البَارِحَةَ بَاتُوا جِيَاعاً.

فَقَالَ الأَمِيرُ: وَنَحْنُ أَيْضاً قَدْ ثَقَّلْنَا عَلَيْهِمُ

اليَوْمَ ، وَلَيْسَ مِنَ المُرُوءَةِ أَنْ يُثَقِّلَ مِثْلُنَا عَلَى مِثْلِهِمْ.

ثُمَّ حلَّ الأَمِيْرُ مِنْطَقَتَهُ ـ مَا يُوْضَعُ عَلَى خَصْرِ الإِنْسَانِ ، وَذَلِكَ بِهَدَفِ وَضْعِ الدَّرَاهِم والدَّنَانِيْر فيْ دَاخِلِهِ ، وكانَ يُصنعُ مِنَ الجِلْدِ ـ مِنْ وَسَطِهِ ، ورَمَى بِهَا في الدَّارِ ، ثمَّ قالَ لأَصْحَابِهِ: مَنْ أَحَبَّني؛ فَلْيُلْقِ مِنْطَقَتَهُ.

فَحَلَّ جَمِيْعُ أَصْحَابِهِ مَنَاطِقَهُمْ ، ورَمَوْا بِهَا إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا.

فَقَال الوَزِيْرُ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ ، لآتِينَّكم السَّاعَةَ بِثَمَنِ هَذِهِ المَنَاطِق ، فَلَمَّا نَزَلَ الأَمِيْرُ ، رَجَعَ إِلَيْهِمُ الوَزِيْرُ ، ودَفَعَ إِلَيْهِمْ ثَمَنَ المَنَاطِقِ مَالاً جَزِيْلاً ، واسْتَرَدَّهَا مِنْهُمْ.

فَلَمَّا رأَتِ الصَّبِيَّةُ الصَّغِيْرةُ ذَلِكَ؛ بَكَتْ بُكَاءً شَدِيْدَاً ، فَقَالُوا لهَا: مَا هَذَا البُكَاءُ ، إِنَّمَا يَجِبُ أَنْ تَفْرحِي ، فإِنَّ الله وسَّعَ عَلَيْنَا؟!

فَقَالَتْ: يَا أُمَّ! والله! إِنَّمَا بُكَائِيْ كَيْفَ بِتنَا البَارِحَةَ جِيَاعَاً! فَنَظَر إِلَيْنَا مَخْلُوقٌ نَظْرَةً وَاحِدَةً ، فأَغْنَانَا بَعْدَ فَقْرِنَا ، فالكَرِيْمُ الخَالِقُ إِذَا نَظَر إِلَيْنَا لا تَكِلْنَا إلى أَحَدٍ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، اللَّهُمَّ انْظُرْ إلى أَبِيْنَا ودَبِّرْهُ بأَحْسَنِ التَّدْبِير.

هَذَا ما كانَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وأَمَّا مَا كَان مِنْ أَمْرِ (حاتِمٍ) أَبِيْهِمْ:

... فإِنَّهُ لَمَّا خَرَجَ مُحْرِمَاً ، ولَحِقَ بالقَوْمِ ، تَوَجَّعَ أَمِيْرُ الرَّكْبِ ، فَطَلَبُوا لَهُ

طَبِيْباً ، فَلَمْ يَجِدُوا ، فَقَالَ: هَلْ مِنْ عَبْدٍ صَالِحٍ؟

فَدُلَّ على (حَاتَمٍ) ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، وكَلَّمَهُ؛ دَعَا لَهُ. فَعُوْفِيَ الأَمِيْرُ ـ بإذْنِ اللهِ ـ مِنْ وَقْتِهِ.

فَأَمَرَ لَهُ بِمَا يَرْكَبُ ، ومَا يَأْكُلُ ، ومَا يَشْرَبُ ، فنَامَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مُفَكِّراً في أَمْرِ عِيَالِهِ ، فَقِيْلَ لَهُ فِي مَنَامِهِ: يَا حَاتَمُ! مَنْ أَصْلَحَ مَعَنَا أَصْلَحْنَا مُعَاملَتَنَا مَعَهُ.

ثُمَّ أُخْبِر بِمَا كانَ مِنْ أَمْرِ عِيَالِهِ ، فأَكْثَرَ الثَّنَاءَ عَلَىٰ اللهِ تعَالى ، فَلَما قَضَى حَجَّهُ؛ ورَجَعَ؛ تَلَقَّاهُ أَوْلاَدُهُ ، فَعَانَقَ الصَّبِيَّةَ الصَّغِيْرةَ ، وبكَى ، ثُمَّ قَالَ:

صِغَارُ قَوْمٍ كِبَارُ قَوْمٍ آخَرِيْنَ ، وإِنَّ اللهَ لا يَنْظُر إلى أَكبَرِكُمْ ، ولَكَنْ يَنْظُرْ إلى أَعْرَفِكُمْ

بِهِ ، فَعَلَيْكُمْ بِمَعْرِفَتِهِ ، والاتِّكَال عَلَيْهِ ، فإِنَّهُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ كَفَاه ، وَمَنْ دَعَاهُ لَبَّاهُ ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاه مَا تمنَّاه.

ما أَفْضَلَ خُلُقَ المُسَامَحَةِ!!

وَهَذِهِ قِصَّةٌ مِنَ القَصَصِ الَّتي نَقَلَتها الصَّحَابَةُ عَنْ رَسُوْلِ الله ﷺ ، وَفِيْهَا مِنَ العِظَاتِ ، والعِبَر الشَّيءُ الكَثِيْرُ؛ خاصَّةً وأَنَّهَا تَدُوْرُ حَوْلَ مِحْوَرِ المُسَامَحَةِ عِنْدَ قَضَاءِ الدَّيْنِ ، وَحُسْنِ القَضاءِ.

أَخْرَجَ البُخَارِيُّ في صَحِيْحِه عَنْ عُقْبَة بْنِ عَمْرٍو ، قَالَ: رأَيْتُ حُذَيْفَةَ بنَ اليَمَانِ فَقُلْتُ لَهُ: تُحَدِّثُنَا مِمَّا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَجَلَسَ إِليَّ ، ثُمَّ قالَ: إِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ:

«إِنَّ رَجُلاً كانَ فِيْمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ ، أَتاهُ المَلَكُ ـ مَلَكُ المَوْتِ ـ لِيَقْبِضَ رُوْحَهُ.

فَقِيْلَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ؟

قالَ: ما أَعْلَمُ.

قِيْلَ لَهُ: انْظُرْ.

قَالَ: مَا أَعْلَمُ شَيْئاً غَيْرَ أَنِّي كُنْتَ أُبَايِعُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا ، وأُجَازِيْهِمْ ، فأُنْظِرُ المُوْسِرَ ـ الغَنِيَّ ـ وأَتَجاوَزُ عَنِ المُعْسِرِ ـ أَيْ: أَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ بِالدَّيْن وأُسَامِحُهُ ـ

فَقَالَ اللهُ تَعَالى: أَنَا أَحَقُّ بذا مِنْكَ.

قالَ: فأَدْخَلَهُ الله الجَنَّة!».

ما حَمَلَكُم عَلَىٰ ذَلِكَ؟!

وفي صَحيْـحِ البُخَـارِيِّ هَذِهِ الحِكَـايَـةُ النَّبويَّةُ الرَّائِعَةُ... والهَادِفَةُ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ:

لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ: أُهْدِيَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ شاةٌ فِيْهَا سُمٌّ.

فَقالَ الرَّسُولُ ﷺ: «اجْمَعُوا لِيْ مَنْ كَانَ هاهُنَا مِنَ اليَهُودِ».

فجَمَعُوا لَهُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيءٍ، فَهَلْ أَنْتم صَادِقُونِي عَنْهُ؟».

فَقَالُوا: نَعَمْ يا أبا القَاسِمِ!

فَقَال لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَبُوْكُمْ؟».

قالُوا: أَبُونَا فُلانٌ.

فَقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَذَبْتُمْ ، بَلْ أَبُوْكُمْ فُلانٌ».

فَقَالُوا: صَدَقْتَ ، وَبَرَرْتَ!

فَقَال: «هَلْ أَنْتُم صَادِقُونِيْ عَنْ شَيءٍ إِنْ أَنَا سَأَلْتُكُم عَنْهُ؟».

فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ! وإِنْ كَذَبْنَاك؛ عَرَفْتَ كَمَا عَرَفْتَ فِي أَبِيْنَا! فَقَال لَهُمْ الرَّسُولُ ﷺ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟».

فَقالُوا: نَكُونُ فِيْهَا يَسيراً ، ثُمَّ تَخْلُفُونَنَا فِيْهَا!

فَقَال لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ: «اخْسَؤوا فِيْها ، واللهِ لا نَخْلُفُكُمْ فِيْهَا أَبَداً».

ثُمَّ قالَ لَهُمْ: «هَلْ أَنْتمُ صَادِقُوْنِيْ عَنْ شيءٍ إِنْ سَأَلْتُكُم عَنْهُ؟».

فَقَالُوا: نَعَمْ.

فقالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ في هذِهِ الشَّاةِ سُمَّاً؟».

فَقالُوا: نَعَمْ.

فَقَالَ: «مَا حَمَلَكُم على ذَلِكَ؟».

فَقَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَذَّاباً أَنْ نَسْتَرِيْحَ مِنْكَ ، وإِنْ كُنْتَ نَبِياً لَمْ يَضُرَّكَ.

قِصَّةٌ فِيْهَا العِبَرُ

في صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ـ رضي اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قالَ:

«نَزَل نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، فَلَدَغَتْهُ ـ قَرَصَتْهُ ـ نَمْلَةٌ ، فأَمَرَ بِجِهَازِهِ فأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا ، وأَمَرَ بِهَا ، فأُحْرِقَتْ في النارِ ، فأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ:

أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ؟ فَهَلا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ؟!».

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ

* * *